الأبحاث والدراسات 53

البحر في كتب التراث الإسلامي (اللغوية والأدبية ، كتب الجغرافيا والرحلات، الكتب التاريخية ، والموسوعات) (*)

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، لغيثان بن جريس (الإسكندرية : دار السماح، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) (الجزء الثاني) ، ص ص ٢٧١ – ٣١٩ .

المبحث الثاني عشر

البحر في كتب التراث الإسلامي (اللغوية والأدبية ، كتب الجغرافية والرحلات ، الكتب التاريخية ، والموسوعات)(*)

(*) بحث نشر ضمن أعمال مؤتمر« الحضارة الإسلامية وعالم البحار » الذي عقده اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة من (٢٢-٢٤ جمادي الأولى ١٤١٤هـ / ٦- ٨ نوفمبر ١٩٩٣م) ص ٩١ - ١٣٤ .

البحر في كتب التراث الإسلامي

(اللغوية والأدبية ، كتب الجغرافية والرحلات ، الكتب التاريخية والموسوعات)

منذ فجر التاريخ والبحر موضع إهتمام لعوامل عديدة منها العوامل الطبيعية فضلاً عن العامل الإقتصادي بوجه عام والتجاري بوجه خاص ومن الشعوب التي اهتمت بالبحر منذ القدم شعوب اليونان والرومان ، كما عنى به الفينيقيون وشعوب الرافدين من ذوي الحضارات القديمة من السومريين والبابليين ، كذلك اهتم به المصريون القدماء الذين ارسلوا بعثات كشفية طافت البحار المختلفة وتعرفت على أسراره وخباياه . أما العرب فقد اهتموا بالبحر منذ أقدم العصور خاصة عرب الجنوب الذين اشتهروا بفنون الملاحة ، وبرعوا في معرفة نظام الرياح الموسمية التي تدفع السفن شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . وكانت لعرب الجنوب رحلتان على الأقل في العام، رحلة الصيف ، وفيها تدفعهم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة الجنوبية نحو الساحل الأفريقي ، ورحلة الربيع عندما تدفعهم الرياح الموسمية نحو الشمال الشرقي إلى سواحل الجزيرة وسواحل الهند حتى بلاد الشرق الأقصى [١] . وهكذا برز العرب في فنون الملاحة وما يرتبط بها من معارف مثل معرفة الطرق البحرية الآمنة ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع البلاد والجزر واستخدام الآلات التي

---

(١) للمزيد من التفصيل عن الإهتمام بالحبر عند شعوب العالم القديم ، انظر جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط ٢ (بيروت ، ١٩٧٨م) حـ ٧ ، ص ٢٤٣ وما بعدها ، أنور الرفاعي ، الإسلام في حضارته ونظمه (دمشق ، دار الفكر ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور الوسطى، وأوائل العصور القديمة (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٢٣ .
R. Coupland , East Africa and its Invaders (Oxford, 1938) PP. 15 ff .

تساعدهم في ركوب البحر مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية والإسطرلاب فضلاً عن رسم الخرائط . ولما كانت بلادهم قليلة الأخشاب اللازمة لصناعة السفن فقد جلبوها من ساحل ملبار بالهند ، ومن سواحل أفريقية الشرقية ، بل حصلوا على الخشب من بعض بلاد البحر المتوسط وجزره ، مثل اقريطش . ومرة أخرى نؤكد أن العرب الذين مرنوا بركوب البحر ومعرفة أسراره هم عرب الجنوب الذين اشتهروا كذلك بصناعة السفن . وقد عرف عرب عمان بمهارتهم في صناعة السفن وتفوقهم في أعمال الملاحة .

ولا أدل على إهتمام العرب بوجه خاص ، وللمسلمين بوجه عام بالبحر من عناية كتب التراث الإسلامي بهذا الجانب الحضاري عناية فائقة فتناولت البحر بالدراسة والفحص ، كما اهتمت بمختلف أوجه النشاط فيه وجاءت الدراسات والإشارات التي تناولت البحر في كتب التراث الإسلامي شعراً كان أم نثراً في غاية الدقة والبراعة وفي ضوء هذه الحقيقة جاء اهتمامنا بدراسة هذا الموضوع البحر في كتب التراث الإسلامي ، اللغوية والأدبية والجغرافيا والرحلات ، والتاريخية والموسوعات » . ورأينا أنه لابد من الإسهام لتسليط الضوء على الدور الكبير والدراسة القيمة التي قدمتها كتب التراث الإسلامي عن البحر .

ومن المعروف أن كتب التراث الإسلامي متنوعة الموضوعات والفروع ، لذلك اقتصرنا في دراستنا هذه على ذكر البحر والإهتمام به في كتب اللغة والأدب والجغرافيا والرحلات والتاريخ والموسوعات .

ونخص بالعناية كتب التاريخ والجغرافيا لعدة اعتبارات منها .

١ - الحرص على مسايرة الإتجاه العام لهذه الندوة التي ينظمها اتحاد المؤرخين ، مما يتطلب أن يكون للتاريخ و الجغرافيا النصيب الوافي .

٢ - أن كتب الجغرافيا والرحالة والتاريخ زاخرة بمعلومات قيمة وهامة عن البحار وعلومها ، وما يدور في عالمها وفلكها .

لذلك جاء الإهتمام بإلقاء الضوء على أكبر قدر ممكن على تلك المعارف عند الجغرافيين والرحالة والمؤرخين الأوائل .

هذا مع اعترافنا بأن ما جاء في كتب اللغة والأدب يعتبر تمهيداً لهذه الدراسة ، وسنبدأ دراستنا بهذا التمهيد .

اولا البحر في كتب اللغة والادب :

حفلت معظم المعاجم اللغوية والعربية بذكر البحر ، وأشارت إلى معانيه ، وتعمقت في تفسير كلمة « البحر » وهي الكلمة التي حظيت بشرح واف عند كل من ابن منظور والزبيدي والجوهري والفيروز أبادي وقد أجمع العلماء على أن البحر هو الماء الكثير مالحاً كان أم عذباً ، كما أضافوا بأن البحر خلاف البر [٢] . وأشار بعضهم إلى أن البحر سمي بهذا الإسم لعمقه واتساعه ، كما ذكروا بأن ماء البحر غالباً ما يكون مالحاً .[٣]

كذلك أجمع أهل اللغة على أن البحر هو اليم [٤] . ويقال أن كلمة

---

(٢) انظر ، جمال الدين أبو الفضل ابن منظور ، لسان العرب ، نسقه وعلق عليه ، على شيري (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م) ، جـ ١ ، ص ٣٢٢-٣٢٦، محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس (القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦هـ) جـ ٣ ، ص ٢٨-٣١ ، اسماعيل بن حماد الجوهري . الصحاح في اللغة والعلوم ، تصنيف نديم واسامة مرعشلي (بيروت : دار الحضارة العربية ، ١٩٧٤م) جـ ١ ، ص ٧٢-٧٣ ، مجد الدين محمد يعقوب الفيروزابادي . القاموس المحيط (القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د. ت)، جـ ١ ، ص ٣٨١-٣٨٢ .

(٣) ابن منظور ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ ، والزبيدي ، جـ ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٤) ابن منظور ، جـ ١ ص ٣٢٤ ، أنور عبد العليم « المعارف البحرية وتطور الملاحة المصرية في الفترة ما بين القرنين التاسع والخامس عشر الميلادي ، كتاب البحرية الإسلامية » (الإسكندرية : جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣م) ص ١٦٨ - ١٦٩، وكلمة (يم) وردت في عدة آيات بالقرآن الكريم ، انظر سورة طه (الآيتان ، ٣٩ : ٧٨) ، القصص (آية : ٧) ، الأعراف (آية : ١٣٦) .

البحر أصلاً كلمة سريانية ، فعربتها العرب وأصلها « يما » وكلمة اليم ورد ذكرها في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى:« فألقيه في اليم» [٥] وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود باليم هنا « نيل مصر » [٦] . وتروى بعض مصادر اللغة أن كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر [٧] .

وأشار الزهري إلى أن كل نهر لا ينقطع ماؤه مثل دجلة والنيل وغيرهما من الأنهار العذبة الكبيرة فهو بحر [٨] ويضيف ابن منظور والزبيدي أن البحار الكبيرة لا يكون ماؤها إلا ملحاً أجاجاً وراكداً [٩] . وهناك ألفاظ أخرى كثيرة مرادفة لأسم البحر في اللغة العربية فمنها على سبيل المثال «القلمس » و « الخضم » و « العيلم » [١٠] كذلك هناك العديد من الكلمات والألفاظ ذات الصلة الوثيقة بالبحر ومدلولاته المختلفة فكلمة «القاموس » تعني معظم البحر أو « البحر » ولجة البحر أي معظم البحر ومنه كلمة « بحر لجى » [١١] كذلك وردت كلمة « سفينة » وعبر عنها بلفظ آخر وهو « الفلك » وكلمة سفينة وردت كثيراً في القران الكريم [١٢] . وقد عرفها العرب قبل الإسلام خاصة عرب الجنوب كما سبق القول ، وقد وصف عمرو بن كلثوم السفينة في أبيات كثيرة ، نذكر منها هذا

---

(٥) سورة القصص (آية : ٧) .

(٦) انظر ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي (بيروت : دار المعرفة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م) جـ ٣ ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .

(٧) ابن منظور ، جـ ١ ، ص ٣٢٤ .

(٨) المصدر نفسه

(٩) المصدر نفسه ، جـ ١٥، ص ٤٥٦-٤٥٧ ، أبو الحسن ابن سيده ، كتاب المخصص (القاهرة : مطبعة بولاق ، ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) جـ ١٠ ، ص ١٦٣ ،الزبيدي ، جـ ٣ ، ص ٢٨-٢٩ .

(١٠) انظر ، جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٤٤- ٢٤٥ . راجع الألفاظ المذكورة في المعاجم اللغوية كلسان العرب وتاج العروس .

(١١) انظر ، الزبيدي ، جـ ٢ ص ٩٣ و ٩٤ .

(١٢) سورة البقرة : (آية : ١٦٤) ، الكهف (الآيتان ٧١،٧٩) ، العنكبوت(آية : ١٥) .

البيت :

ملأنا البحر حتى ضاق عنا ... وموج البحر نملؤه سفينا [(١٣)]

أما كلمة الفلك وجمعها فلوك ، فيعبر عنها بالمركب ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم يقول الله تعالى : « والفلك التي تجري في البحر بأمره » [(١٤)] ويقول الشاعر :

جوافل في السراب كما استقلت ... فلوك البحر زال بها الشرير [(١٥)]

ويقال للسفينة أيضاً « بارجة » وجمعها « بوارج » مع العلم أن السفن تعددت في الأحجام والأشكال والأهداف بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وبالتالي صار لها مسميات متعددة ، أشارت بعض المعاجم اللغوية إلى اكثرها ، بل أخرج بعض المؤلفين المحدثين دراسات كثيرة عن السفن وأسمائها ، وكتبوا عن المصطلحات التي كانت تطلق على السفن خلال القرون الإسلامية الوسيطة [(١٦)] .

كذلك كان للعاملين في البحر نصيباً أوفر في بعض المعاجم اللغوية . فقد أفردت بعض المعاجم تعريفاً لا بأس به عن بحارة البحر أو العاملين في السفن التي تجوب البحار . فالشخص الذي يعمل في السفينة ،

---

(١٣) ابن منظور ، جـ ٦ ، ص ٢٨٦، جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٤٧ .

(١٤) سورة البقرة (آية : ١٦٤) .

(١٥) جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٤٨، والمقصودر بكلمة (فلوك) أي جمع الفلك ، أما الشرير فهو شجر البحر ، ويظهر من هذا أن (الفلك) هي سفينة من سفن البحر ، وهي من السفن الكبيرة ، وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً في « الفلك المشحون » ، أي السفينة المشحونة المملوءة . كما ورد في القرآن الكريم أشارات أخرى تدل على صنع الفلك وإلى سيرها في البحر.

(١٦) انظر تفصيلات أكثر ، درويش النخيلي ، السفن الإسلامية علي حروف المعجم (القاهرة:دار المعارف ، ١٩٨٩م) ص ٤ وما بعدها ، مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم . تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام (بيروت : دار النهضة ، ١٩٨١م) ص ١٣١-١٤٠ ، السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس (بيروت: دار النهضة العربية ، ١٩٦٩م) ص ٧ وما بعدها .

أطلقوا عليه كلمة « ملاح » وأحيانا « سفان » كما يقال للمكان الذي ترفأ إليه السفينة « مرفأ » وهي كلمة من أصل « رفأ » بمعنى أدنى .

وقد ورد في حديث تميم الداري قوله : « أنهم ركبوا البحر ثم أرفأوا إلى جزيرة » (١٧) ويقال للمرفأ « الميناء » وقد عرفوا بأنه الموضع الذي ترفأ فيه السفينة كما يقال له « فرضة » و « فرضة البحر » و «المرساة » أي البقعة التي ترسو فيها السفينة (١٨) .

وزخرت كتب الأدب الأخرى بذكر البحر ، ومعظمها حافل بإشارات جميلة عن « البحر » جاءت ضمن مواضيع متعددة الجوانب ، ففي كتب ابن قتيبة والأصفهاني والثعالبي والجاحظ وغيرهم نجد في أماكن كثيرة إشارات إلى ذكر البحر ، أما ضمن مواضيع اجتماعية أو أدبية أو إقتصادية وفي بعض الأحيان يرد ذكر أسماء بعض البحار أو بعض السواحل ، أو بعض المواقف والمناسبات التي يكون للبحر فيها دور ، ويشير المؤرخ الجغرافي الكبير أبو الحسن المسعودي إلى كتاب ألفه أبو بحر الجاحظ بعنوان كتاب « الأمصار وعجائب البلدان » ، ويتناول بعض المعلومات التي نقلها عنه كذلك يشير إلى نفس الكتاب عالم جغرافي آخر هو ابن الفقيه الهمذاني .

والمعروف عن الجاحظ أنه أديب وعالم لغة ضليع بالدرجة الأولى ، إلا أنه تعرض للجغرافيا وألم بفنونها الوصفية . والمعلوم عن بعض علماء المسلمين الأوائل أنهم كانوا يهتمون بأكثر من فرع من فروع المعرفة ويتفوقون في عدد منها ولا يحصرون أنفسهم في دائرة ضيقة من دوائر المعرفة .

---

(١٧) انظر ، ابن منظور ، جـ ٥ ص ٢٦٣ .
(١٨) جواد علي ، جـ ٧ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

أما البحر في الشعر فقد يكون له حظ أكثر من غيره ، وذلك لعدة أسباب نذكر منها :

١ - حب العرب وكثير من المسلمين لقرض الشعر ، وولعهم ببيئة البحر وما يدور فيها من خواطر قد تساعد قريحة الشاعر على أن يقرض شعراً .

٢ - نشاط الحياة الأدبية والفكرية وكثرة الشعراء خلال القرون الإسلامية الوسيطة ، ثم ميل الإنسان واستمتاعه لسماع الشعر لما فيه من معان وأوزان وقواف جميلة تستهوى الإنسان ، الأمر الذي جعل الشعر يأتي في المقدمة ويطغى على ما عداه من فروع الأدب الأخرى .

وعلى ذلك يمكن القول أن البحر حظى بمكانة واسعة ورعاية فاقت حد الوصف في الشعر العربي في مناسبات عديدة . وامتد وصف الشعراء للبحر إلى التعرض لهيجانه وما يصحب ذلك من حركات المد والجزر كذلك جاء في الشعر العربي وصف للسفن التي استخدمت في البحار ، كما صور الشعراء همة بعض الخلفاء والأمراء أو القادة ونشاطهم في ركوب البحر ومعظم دواوين الشعر مليء بوصف البحر والنشاط البشري عليه ، ونورد هنا بعض الأمثلة لبعض ما قيل في البحر وما يدور فيه :

فالكريم من الناس قد يوصف بالبحر في جوده وسخائه ، وهذا ما قاله الأعشى عندما وصف ممدوحه ، فقال :

وما مزبد من خليج الفرات   جون غواربه تلتطم

يكب الخلية [١٩]   ذات القلاع   وقد كاد جؤجؤها يتحطم

(١٩) الخلية : اسم من اسماء السفن البحرية .

تكأكأ ملاحها وسطحها ومن الخوف كوائلها يأتزر [٢٠]

وذكر الشاعر أبو نواس شعراً يصف فيه بعض أنواع سفن (حرقات) للخليفة العباسي الأمين (١٩٣هـ / ٨٠٨م - ١٩٨ هـ ٨١٣/م) فقال :

فإذا ما ركابه سرن برا سار في الماء راكبا ليث غاب

أسد باسطـــا ذراعيه يعـــدو أهرث الشدق كالح الأنياب

لا يعانيـــه باللجام ولا الشوط ولا غمز رجله في الركاب

عجب الناس إذا رأوه على صورة ليث يمر مر السحاب

تسبق الطير في السماء إذا مـــا استعجلوها بجيئة وذهاب [٢١]

وفي قصيدة أخرى يقول :

اشرقت دجلة من نـوره واسفر الشطان واستبهجا

لم تر عيني مثله مركباً اسحن إن سار وإن عرجا

إذا استحثه مجاديفـه أعنق فورد الماء أو هملجا[٢٢]

وقال الشاعر الأندلسي أبو عبد الله بن الحداد فيها :

ذات هداب من المجاديف حاك هدب باك لدمعة إسعاد

حمم فوقها من البيض نـــــار كل من أرسلت عليه رماد [٢٣]

ويصف البحتري والي البحر أحمد بن الدينار بن عبد الله وقد غزا الروم بحراً ، فقال :

---

(٢٠) الكوائل : مؤخرة السفينة
(٢١) أنور عبد العليم : « المعارف البحرية ... » ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
(٢٢) المرجع نفسه . والتعليق والهملجة ضربان من ضروب الجري .
(٢٣) أنور الرفاعي ، ص ٤١٢

غدوت على الميمون صحباً وانما   غدا المركب الميمون تحت المظفر
يسوق أسطولاً كأنه سفينـــــة   سحائب صيف من جهام وممطر [٢٤]

وقد أفتن شعراء المغرب والأندلس في وصفهم لسفن الأساطيل العربية، ومن ذلك قول أبي عمرو بن يزيد بن عبد الله بن أبي خالد الأشبيلي :

ويا للجواري المنشأت وحسنها   طوائر بين الماء والجو عوماً
إذا نشرت في الجو أجنحة لها   رأيت به روضاً ونورا مكسماً
مجاديف كالحيات مدت رؤوسها   على رجل في الماء كي تروى الظما [٢٥] .

وتوصف أحياناً بعض السفن الحربية ، مع توضيح قوتها وضخامتها ، وذلك ما ذكر الشاعر أبن حمديس في قصيدة خاطب بها أحد أمراء بني زيري في المغرب الأدنى واصفا ضخامة السفن المعروفة بـ (الشونة ، وجمعه شواني) فقال :

أنشأت شواني طائـرة   وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال نحسبهـــا   في شم شواهقها فننا
ترمي ببروج إن ظهرت   لعدو محرقة بطنا
وبنفط أبيض تحسبـه   ماء وبه تذكى السكنا [٢٦]

ويصف ابن حمديس نوع آخر من السفن العسكرية ، وتسمى الحربية وجمعها حرابى أو حربيات ، وتمتاز بسرعتها وخفة حركتها ، فقال :

---

(٢٤) سعاد ماهر . البحرية في مصر الإسلامية (القاهرة ، ١٩٦٧م) ، ص ١٢٦ وما بعدها ، محمد ضيف الله بطاينة « الأسطول الإسلامي ، نشأته وتطوره » مجلة الدارة ، عدد (٣) سنة (١١) (١٤٠٦ هـ ١٩٨٥/م) ص ١٨ - ١٩ .
(٢٥) أنور عبد العليم ، المرجع السابق ،ص ١٧٠ .
(٢٦) أنور الرفاعي ، ص ٤١١ .

يخوضون بحراً كل حين إليهم ببحر يكون الموج فيه فوارسا

وحربية ترمي بمحرق نفـــط فيغشى سعوط الموت فيها المعاطس

رأوا حربية ترمى بنفـــط لإخماد النفوس له استعار

كأن المهل في الأنبوب منـــه إلى شي الوجوه له ابتدار

كأن منافس البركان فيـــها لأهوال الجحيم بها اعتبار

نحاس ينبري منـــه شواظ لأرواح العلوج به بوار

وقال أيضاً في وصف النار الإغريقية :

وما للماء بالإطفاء حكـم عليه لدى الوقود ولا أقتدار (٢٧) .

ثانياً : البحر في كتب الجغرافيين والرحالة :

كان الجغرافيون والرحالة أكثر من غيرهم إهتماماً بالبحر ، وحديثاً عنه، وجاء ذلك لغدة إعتبارات :

١ - طبيعة عمل هؤلاء في حقل الجغرافيا ، وخاصة وإن اهتمام الجغرافيا بالبحر لا يقل عن اهتمامها بالبر ، وهذا الإهتمام جعل هؤلاء في ترحالهم وتنقلهم يدونون ملاحظاتهم ومشاهداتهم التي اكتسبوها من خلال أسفارهم وتجاربهم .

٢ - ترجمة بعض العلوم اليونانية المتعلقة بالبحار إلى العربية ، مما أمد الجغرافيين العرب والمسلمين بالكثير من المعلومات ، فدرسوها ونقبوا فيها ثم أضافوا إليها الكثير .

٣ - اتساع رقعة الدولة الإسلامية حتى أصبحت تضم العديد من البحار والخلجان ، يضاف إلى ذلك أن نشاط الملاحين المسلمين الأوائل

---

(٢٧) المرجع نفسه ، ص ٤١٣ ، ٤١٥ .

ساعد الجغرافيين والرحالة على كسب معارف متنوعة عن البحار وما يتصل بها.

ومن واقع الإلمام بما جاء في كتب الجغرافيين والرحالة ، يتضح لنا أن تفاوتا واضحاً وفرقاً بيناً في الإهتمام والوصف بين هؤلاء بعضهم وبعض، ففي حين اكتفى بعضهم بإشارات موجزة عن البحر نري أن البعض الآخر أفاض وأسهب كثيراً ويعتبر عبيد الله بن خرداذبه [٢٨] ، في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يعتبر من أوائل الذين أشاروا إلى الطرق البرية والبحرية وخاصة الطريق البحري الذي يمتد من بحر فارس إلى الهند والصين ، مع ذكر المحطات الجزر التي يصادفها المسافر على تلك الطرق . كذلك نوه ابن خرداذبه بحركة المد والجزر والتيارات البحرية التي تنفرد بها بحار تلك الجهات [٢٩] .

وفي أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي ظهر صاحب كتاب

---

(٢٨) ابن خرداذبه : هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ، ينتمي إلى اسرة فارسية له كتاب (المسالك والممالك) . وهذا الكتاب من المؤلفات المبكرة جداً للجغرافية العربية الوصفية ، وقد اقتبس منه الجغرافيون اللاحقون على نطاق واسع ، وقد اهتم ابن خرداذبة في هذا الكتاب بأمور كثيرة منها : وصفه لطرق المواصلات بين الأقطار والمدن الإسلامية ، وكذلك اشتمل على بعض المعلومات الفلكية السطحية ، وشيء من الغرائب والطرف عن البلدان القصية كالصين والهند وتركستان وغيرها . وللمزيد من التفصيل ، انظر ، أحمد رمضان أحمد ، الرحلة والرحالة المسلمون . (جدة : دار البيان العربي ، د. ت) ص ٥١-٥٥ ، شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية دراسة في التراث الجغرافي العربي (بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٨م) ص ٢٧٥-٢٧٦

(٢٩) أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، تحقيق أم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م) ص ١٧٢-١٧٣ .

(الأعلاق النفسية) وهو أحمد بن عمر المعروف (بأبن رستة) [٣٠] ، إلى أن البحار المعروفة في المعمورة خمسة ، هي :

١ - بحر الهند وفارس والصين .

٢ - بحر الروم وشمال أفريقية .

٣ - بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسي المسمى ببحر أوقيانوس ، وكان يطلق عليه أيضاً بحر المغرب .

٤ - البحر الأسود ، ويعرف أيضاً باسم بحر نيطس .

٥ - بحر الخرز .

ولم يقتصر ابن رستة على ذكر اسماء هذه البحار وتوزيعها ، وإنما أشار إلى الأقاليم التي تطل على كل واحد من هذه البحار ، وتعرض لذكر طول وعرض كل بحر بالأميال ، مع الإشارة إلى عدد ما يخرج من كل بحر من خلجان ، وما تشتمل عليه من جزر ، ثم أضاف تفصيل ما ورد عن ابن خرداذبه عن بحر الهند وفارس من حيث هيجانه ، وحالة المد والجزر فيه ، وأفضل الأوقات للملاحة فيه [٣١] .

---

(٣٠) هو أبو علي أحمد محمد بن اسحق بن رسته ، وهو فارسي الأصل ، وقد اشتهر بموسوعته المعنونة بـ (الأعلاق النفيسة) ، والتي يبدو أنه كتبها في حدود (٢٩٠هـ / ٩٠٣م) ، ولكن لم يصل إلى أيدينا سوى الجزء السابع منها ، وهو الجزء المتعلق بالجغرافيا ، وقد تصدر هذا الجزء مقدمة وافية في الجغرافيا الرياضية والفلكية كما الحق بالكتاب قسم مخصص لعجائب العالم من حيوانات ونبات وآثار ومبان . كذلك اشتمل الكتاب على وصف للبحار والأنهار المشهورة والأقاليم السبعة بمدنها الرئيسية وقد توفى ابن رسته حوالي عام ٣١٠هـ / ٩٢٣م) ، انظر احمد رمضان أحمد ، المرجع السابق ، ص ٥٩-٨٩ .

(٣١) انظر ، أحمد بن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة ، الجزء السابع ، تحقيق أم . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٩١م) ، ص ٨٣ - ٨٩ .

وفي العضر الذي عـاش فيه ابن رسته ، خرج عالم جغرافي آخر ، هو ابن الفقيه الهمذاني [٣٢] ، فدون معلومات شمل فيها ما ذكر خرداذبه وإبن رسته ، ثم حدد البحار الكبار بأربعة هي : البحر الذي يمتد من الغرب إلى الصين ، وهو بحر فارس والهند والصين الذي اشار إليه ابن خرداذبه وابن رسته ، والبحر المتوسط وذكره باسم البحر المغربي الرومي ، ثم البحر الخراساني الخزري ،وأخيراً البحر ما بين روميه وخوارزم [٣٣]. أمـا أبو اسحاق إبراهيم الأصطخري [٣٤] ، فلم يتفق مع من سبقه في توزيع البحار ،وإنما ذكر بحرين فقط هما : بحر فارس وبحر الروم ، وأشار إلى أن بحر فارس يبدأ ببحر القلزم وينتهي في سواحل الصين ،و بحر الروم يبدأ من مضيق جبل طارق حتى مدخل البحر الأسود ، وقد أورد تفصيلات طيبة عن ذينك البحرين [٣٥] . ويذكـر أبو القاسم

(٣٢) هو أبو بكر أحمد بن محمد اسحاق بن الفقيه الملقب بالهمذاني ، ولد في مدينة همذان ، وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) .. وكتابه المعنون (مختصر كتاب البلدان) لم يخل من معلومات مفيدة عن بعض أقطار العالم الإسلامي . ومن أهم أجزاء هذا الكتاب ما يتعلق بوصف الأرض والبحار والأنهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر والمغرب وبلاد البربر والشام وفلسطين والعراق وبلاد الروم ، وقد توفي الهمذاني حوالي عام ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) ، انظر ، شاكر خصباك ، ص ٢٧٦-٢٧٧، أحمد رمضان أحمد ، ص ٨٥-٨٩ .

(٣٣) انظر ، أحمد ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق أم. دي. غوي (ليدن مطبعة بريل ، ١٣٠٢هـ) ص ٥ - ١٢ .

(٣٤) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري ، عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في مدينة اصطخر بإيران . وقد زار عدد من بلدان الأرض ، ثم دون كتابه (المسالك والممالك) ، وقسم بلاد الإسلام إلى عشرين إقليماً ورسم خارطة لكل من هذه الأقاليم جعلها في مطلع الحديث عنه . وقد آورد عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ، وغيرها من المعلومات القيمة لمن جاء بعده من الجغرافيين والرحالة الأوائل . انظر، أحمد رمضان أحمد ، ص ٧٩-٨٥ .

(٣٥) أبو اسحاق الأصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال (القاهرة ، ١٩٦١م) ص ٧٣ وما بعدها .

محمد [٣٦] ، المعروف بـ (ابن حوقل) بعض الإشارات المشابهة لما ذكر الأصطخري ، وخاصة فيما يتعلق ببحر فارس وامتداده ، والبلاد التي يمر عليها ، كما يورد بعض التفصيلات عن بحر الخزر ، فيقول : « إن هذا البحر ليس له إتصال بشيء من البحار التي على وجه الأرض بطريق العادة والإختلاط إلا ما يدخل إليه من نهر الروس . ولو أن رجلاً طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع ، وهو بحر مالح ولا مد له ولا جزر ، مظلم قعره بخلاف بحر القلزم لأن قعره طين آجن آسن [٣٧].

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، برز أبو الحسن علي المسعودي [٣٨] ، فذكر بعض أقوال من سبقه وأشار إلى بعض المؤلفات التي لم تصلنا ، ككتاب (رسم المعمور من الأرض) و (في البحار المد والجزر) للفيلسوف العربي يعقوب الكندي ، المتوفي عام (٢١٦هـ / ٨٧٤م) ، وكتاب (البحار والمياه والجبال) لتلميذ الكندي ، أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي ، المتوفي عام (٢٨٦هـ / ٨٩٩م) ، وقد أورد المسعودي في كتابه المسمى (أخبار الزمان) معلومات جيدة عن توزيع البحار والمحيطات مع الإشارة إلى مدى صلاحية

---

(٣٦) هو أبو القاسم محمد بن العلي الموصلي المشهور بابن حوقل ، ولد في بغداد ، وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، قام ابن حوقل برحلات عديدة إلى اجزاء عديدة من قارتي آسيا وأفريقيا ، ثم دون كتابه المعروف بـ (صورة الأرض) وهذا الكتاب يعتبر من أهم وأبرز الكتب الجغرافية العربية المبكرة التي تمثل ركناً هاماً من أركان الجغرافية العربية ، وللمزيد من التفصيل ، انظر ، أحمد رمضان أحمد ، ص ١١٧-١٢٩ .

(٣٧) انظر ، محمد بن حوقل ، صورة الأرض (بيروت : منشورات مكتبة دار الحياة ، ١٩٦٢) ص ٢٧٦ .

(٣٨) انظر تفصيلات اكثر عن المسعودي ، أحمد رمضان أحمد المرجع السابق ، ص ١٠١-١١٧ .

بعضها للملاحة [39]، وفي كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) يذكر فصولاً جيدة عن البحار وأطوالها ، وحركة المد والجزر في بعضها ، وما يتشعب من كل بحر من الخلجّان ، ويصب إليه من أنهار ، وما في أعظمها من جزائر عظام [40] ، كذلك ذكر تفصيلات جانبية عن بعض البحور العظام من حيث هيجانها وركودها ، والأوقات المناسبة لركوبها ، وما يوجد فيه من نباتات وحيوانات ، كما أشار إلى كثرة اللؤلؤ والأحجار الكريمة في بعضها [41] .

وكان شمس الدين أبو عبد الله أحمد المقدسي البشاري [42] ، من أبرز جغرافيي ورحالة القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، فذكر أن البحار المعروفة في عصره بحران هما : ما يمتد بين بلد الصين وبلد السودان ، وما يأتي من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس ، أما البحار والأنهار الأخرى في العالم الإسلامي ، فهي في نظره عبارة عن خلجان وتفرعات لهذين البحرين [43] . وقد عاصر أخوان

---

(٣٩) أبو الحسن علي بن الحسن المسعودي ، اخبار الزمان (بيروت : منشورات دار الأندلس، ١٩٦٦م) ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤٠) ابو الحسن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق يوسف أسعد داغر (بيروت : دار الأندلس ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) مج ١ ص ١٦٧ - ١٩٧ .

(٤١) المصدر نفسه ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٩١ وما بعدها .

(٤٢) ولد المقدسي في حوالي عام (٣٣٥هـ / ٩٤٦م) . ويعتبر أحد الرواد العظام في الجغرافية العربية ، فقد أمضى سنوات طويلة من عمره يتجول في أنحاء العالم الإسلامي ويجمع المعلومات لكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عن طريق المشاهدة والإستقصاء ، وقد توفي في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) للمزيد من التفصيل ، انظر أحمد رمضان أحمد ، ص ١٢٩ - ١٣٧ .

(٤٣) شمس الدين أحمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق آم، دي ، غوي (ليدن : مطبعة بريل ١٨٧٦م) ص ١٠-٣٠ .

الصفا (٤٤) المقدسي فذكروا ملاحظات طيبة في رسالتهم الخامسة عن (الجسمانيات الطبيعيات)وذكروا اتصال البحار بعضها ببعض ، وبينوا أسباب حدوث التيارات والأعاصير فيها ، وقالوا عن الهيجان والمد والجزر في البحار أن « ... علة هيجان البحار وارتفاع مياهها وبروزها على سواحلها وشدة تلاطم أمواجها وهبوب الرياح في وقت هياجها إلى الجهات الخمس في أوقات مختلفة من الشتاء والصيف والربيع والخريف ، وأوائل الشهور وأواخرها ، وساعات الليل والنهار فهي من أجل أن مياهها إذا حميت في قرارها وسخنت لطفت وتحللت وطلبت مكاناً أوسع مما كانت فيه قبل فيتدافع فيه بعض أجزائها إلى الجهات الخمس فوقاً وشرقاً وجنوباً شمالاً وغرباً للإتساع فيكون في الوقت الواحد على سواحلها رياحاً مختلفة في جهات مختلفة . وأما علة هيجانها في وقت دون وقت بحسب شكل الفلك ومطارع شعاعاته على سطوح تلك البحار من الأفاق والأوتاد الأربعة (٤٥).

(٤٤) اخوان الصفا جماعة من المفكرين المختصين في الدين والفلسفة كانوا يجتمعون في البصرة (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و العاشر الميلادي) ، وقد اتخذوا لأنفسهم اسم (اخوان الصفا وخلان الوفا) اشارة إلى إحدى حكايات كليلة و دمنة وقاموا بوضع احدى وخمسين رسالة في مختلف حقول المعرفة من دون الإشارة إلى اسماء المؤلفين ، وكان الغرض منها تقديم اساس عقلي للعقيدة الدينية ، وقد تضمنت تلك الرسائل اشارات متعددة إلى المفاهيم اليونانية والرومانية ، ولا سيما بآراء ارسطو وبطليموس ، وقد عنوا عناية خاصة بالجغرافية الطبيعية وقدموا شروحاً على جانب كبير من الأهمية لبعض الظواهر الطبيعية والمترولوجية كالخسوف والكسوف والرياح والأمطار والبحاو الزلازل والبراكين والحركات الجيولوجية . غير أن تلك الشروح والآراء لا تنطوي على أية اصالة ، بل هي مجرد نقل مباشر للفكر اليوناني والروماني ، وللمزيد من التفصيل ، انظر محمد محمود محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون (الكويت : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ١٦٢- ١٦٣، ١٦٧ - ١٦٨، الموسوعة الميسرة (١٩٥٩م) اشراف محمد شفيق غربال ، ص ٦٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية (١٩٣٣م) جـ ١ ، ص ٥٢٧-٥٢٩ .

(٤٥) انظر . اخوان الصفا ، رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا (القاهرة : منشورات المكتبة التجارية ، ١٩٢٨م) جـ ٢ ، ص ٨٢-٨٣ .

أما محمد بن سنان البتاني في كتابه (الزيج الصابي) وسهراب في كتابه (عجائب الأقاليم السبعة) (٤٦) فقد أشارا إلى بعض بحار الأرض وحددا مواقعها ، مع ذكر خطوط الطول والعرض وحركة المد والجزر في بعضها (٤٧) ، وقد أورد سهراب معلومات واسعة عن الأنهار والبحار والبحيرات المشهورة حسب مواقعها من الأقاليم السبعة ، وأهتم اهتماماً خاصاً بأنهار العراق وبشبكة قنوات الري فيه مما يعتبر سجلاً جيداً لنظام الري العراقي خلال القرون الإسلامية الوسيطة (٤٨) ، كذلك ذكر أن البحار خمسة هي : البحر المغربي الخارجي من الشمال ، وبحر افريقية وبرقة ومصر والشام والروم ، وبحر القلزم والسند والهند والصين وفارس ، والبحر المظلم وهو خلف خط الإستواء ، وبحر جرجان وطبرستان والديلم(٤٩).

ومع أن أبا الريحان محمد بن أحمد البيروني (٥٠) ، اشتهر في علوم الرياضيات والفيزياء والفلك ، إلا أنه كتب عدة كتب في التاريخ والجغرافيا منها كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) وقد عرف باسم (كتاب الهند) ، وكتابان آخران هما : (الآثار

---

(٤٦) وللمزيد من التوضيحات عن كل من البتاني وسهراب انظر ، محمد محمود محمدين ، الجغرافيا والجغرافيون ، ص ١٥٢ وما بعدها ، شاكر خصباك ، تطور الفكر الجغرافي (الكويت: مكتبة الفلاح ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م) ص ٨٠ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه ، في الجغرافيا العربية ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٤٧) محمد بن سنان البتاني ، كتاب الزيج الصابي (روما ، ١٨٩٩م) ، ص ٢٦-٢٧، سهراب ، عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة (فيينا : نشرة هانس فون مجيك ، ١٩٢٩م) ص ٥٤-٦٨ .

(٤٨) سهراب ، ص ٥٤ - ٦٨ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٥٤ وما بعدها .

(٥٠) وللمزيد من التفصيلات عن حياة البيروني ومساهماته في علوم الجغرافيا ، انظر ، أحمد رمضان أحمد . ص ١٣٧-١٤٥ .

الباقية من القرون الخالية) و (القانون المسعودي) وقد اشار البيروني إلى توزيع البحار واحاطتها بالأرض ، كما اعتقد أن المحيط الهندي يتصل بالمحيط الأطلسي في جنوبي القارة الأفريقية ، كذلك تعرض بمعلومات وافية لبعض السواحل البحرية في أوروبا الشمالية وكذلك آسيا الشمالية والشرقية [٥١] .

وفي أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) برز الجغرافي والرحالة المسلم أبو عبد الله محمد المعروف بالأدريسي ، الذي اهتم بعلوم التاريخ والجغرافيا منذ سن طفولته، بل وبدأ أسفاره وترحاله منذ فترة مبكرة في عمره ، فطاف في الأندلس وسواحل أوروبا الغربية بما فيها سواحل بريطانيا وفرنسا وشبه جزيرة أيبريا ، ويعتبر أول جغرافي عربي تنقل على نطاق واسع في القارة الأوروبية ، وقد دون كتابه المعروف بـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أو ما سمي بـ (كتاب رجار) نسبة إلى ملك صقلية روجر الثاني ، أو ما يعرف أيضاً بـ (الملك رجار) الذي استدعى الأدريسي وطلب منه أن يكتب له كتاباً يصف له فيه مملكته وسائر أصقاع العالم ويضع خارطة لأقطار الأرض ، فرحب الأدريسي بهذه الفكرة وانجز كتاب نزهة المشتاق ، وقد بقي هذا الكتاب وما أورده فيه الأدريسي من خرائط معتمداً ، يدرس ضمن الدراسات الجغرافية في الجامعات الأوروبية لفترة غير قصيرة[٥٢] .

وقد اتبع الأدريسي في كتابه المذكور المنهج البطليموسي في تقسيم

---

(٥١) أبو الريحان محمد البيروني . القانون للمسعودي (حيدر آباد : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م) ، ص ٥٨ وما بعدها ، حوراني . العرب والملاحة ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٥٢) محمد بن محمد الأدريسي . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م) . انظر في الجزئين معاً ، أحمد رمضان أحمد ، المرجع السابق ، ص ١٦١-١٧٧ .

الأرض إلى سبعة أقاليم وتحدث عن بلدان كل إقليم على حده مع رسم خارطة لها كذلك تميز هذا الكتاب عن غيره من المؤلفات الجغرافية العربية السابقة بمعلومات عن منابع نهر النيل وعن السودان الغربي وعن نهر النيجر ، كما انفرد أيضاً بغزارة معلوماته عن القارة الأوروبية (٥٣).

وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)(٥٤) ، ظهر أبو الفداء فكتب في التاريخ والجغرافيا ، ومن أشهر كتبه في العلوم الجغرافية (كتاب تقويم البلدان) الذي فصل فيه كثير من المعارف ، وتكلم عن البحار ببعض التفصيل ، وذكر أن البحار العظيمة المشهورة خمسة وهي : البحر المحيط وبحر الصين وبحر الروم وبحر نيطش وبحر الخزر)(٥٥) كما سجل حقيقة جغرافية هامة عند حديثه عن توزيع البحار والمحيطات ، وهي أن الماء يغمر ثلاثة أرباع مساحة الأرض ، وهذه أحدى الحقائق الهامة التي اثبتتها الجغرافية الحديثة بعد أن توفرت لها الوسائل العلمية وبعد أن تم الكشف عن جميع جهات الأرض (٥٦).

ويعاصر أبو الفداء جغرافي ومؤرخ آخر هو شمس الدين محمد بن ابي طالب الأنصاري المعروف بالدمشقي أو باسم (شيخ الربوة) فألف عدة كتب اشتهر من بينها كتابه الجغرافي (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) وشمل هذا الكتاب أبواباً عديدة في شكل الأرض ، ووصف الأقاليم السبعة ، وإهتمامه بالبحار وخاصة البحر الأبيض المتوسط ، والمحيط الهندي ، وغرائب الحياة في البحر إلى جانب فصول ممتعة عن

---

(٥٣) الأدريسي ، المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٢ وما بعدها .

(٥٤) انظر معلومات أكثر عن أبي الفداء . أحمد رمضان أحمد ، ص ١٩٧-٢٠٩ .

(٥٥) عماد الدين اسماعيل أبو الفداء . كتاب تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) ص ١٧ وما بعدها .

(٥٦) يقول أبو الفداء « والقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها ، أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية بالتقريب فمعمورة البحار » . انظر تقويم البلدان ، ص ١٨-١٩ .

المعادن والأحجار الكريمة ، كما أشار إلى بعض التفصيلات عن مسميات البحار الكبرى وامتداداتها ، فأوردها على النحو التالي ، قال أهل العلم تعريفاً بذلك أن الماء المحيط بالأرض هو جرم بسيط مشف جرمه طبعه أن يكون بارداً رطباً متحركاً إلى المكان الذي تحت كرة الهواء وفوق الأرض ، وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار ، ولا يعرف له ساحل ، وله أسماء في الجهات سماه بها اليونان ومن قبلهم . فاسمه في الجهة المغربية أوقيانوس والبحر الأخضر ، وفي جهة جنوب الأرض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد ، وفي جهة محض جنوب البحر الأحمر ، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة والمحيط الشمالي ، وفي شمال الأندلس اللبلاية وبحر قادس . وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الأرض مالح ، وسائر البحار التي بوجه الأرض غيره فإنها خلجان منه متصلة به فائضة عنه (٥٧) .

ولم يكتف الدمشقي بشرح البحار ومساحاتها وامتداداتها ، بل شرح جانباً هاماً من جيومورفولوجيتها ، وهو تحدب سطح المحيطات حسب كروية الأرض ، وهذه الناحية قلما تعرض لذكرها الجغرافيون الأوائل . قال الدمشقي : وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها في بقاعها ووحدات الأرض المغمورة بمياهها . ومعنى الأنسجار منها أنها كروية الشكل في دورانها وكروية مع الأرض في تحدبها الكروي . فكل جزء منها مكفوف الأطراف كصورة نصف سدس دائرة . وهذا في صورته الخاصة ، فالبحار مستديرة باستدارة كرة الأرض وكهيئاتها في التدوير والإنكفاف . ولذلك الراكب في البحر إذا توغل فيه غابت عنه الأرض ، وإذا ما استشرف على السواحل فأول ما

(٥٧) شمس الدين محمد الأنصاري الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بغداد : منشورات مكتبة المثنى ، د.ت) ص ١٢٧ .

يظهر له رؤوس الجبال العالية [٥٨] .

وناقش الدمشقي أيضاً الآراء المختلفة في أسباب ملوحة مياه البحار فقال : « وتكلم العلماء بعلمهم في الشيء الذي كان عنه الماء . فمنهم من زعم أن المياه من الإستحالة ، فطعم كل ماء على قدر تربته ، ومنهم من يزعم أن البحر بقية الرطوبة التي جفت أكثرها جوهر النار وباحراقه لهذه البقية استحالت إلى الملوحة . ومنهم من زعم أن أصل الماء العذوبة واللطافة ، وإنما لطول مكثه جذبت الأرض ما فيها من العذوبة لملوحتها وجذبت الشمس ما فيه من اللطافة بحرارتها فاستحال إلى الغلظ والملوحة[٥٩] .

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) عاش عبد الرحمن بن خلدون الذي لم يكن جغرافياً في الأساس ، وإنما كان مؤرخاً ومفكراً قبل كل شيء . لكنه كتب عدة مؤلفات من أشهرها الكتاب المعروف بـ(مقدمة إبن خلدون) ، وهي مقدمة كتبها لمؤلفه التاريخي المعنون بـ(ديوان المبتدأ والخبر ...) ، وهذه المقدمة قد بوأت ابن خلدون مركزاً سامياً في الدراسات الإجتماعية والتاريخية والسياسية والجغرافية . وقد اشتملت على عناوين عديدة في علوم الجغرافيا ، منها عنوان سماه (في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم) وأفضل ما أورد لنا في هذا الجزء ، أن قدم تلخيصاً جيداً لمعلومات الجغرافيين السابقين عن توزيع البحار ، وأوردها على النحو التالي « وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في

---

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .
(٥٩) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

الأقليم الرابع البحر الرومي يبدأ في خليج متضايق في عرض أثنى عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق (٦٠) ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الأقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه ، وعليه هناك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم أفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية ، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج . ثم البنادقة ثم رومة ثم الأفرنجة ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية . قالوا ويخرج منه من جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم يمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ، ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ، ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة وينتهي في بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل في فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس ، والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة (٦١) ، يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة . قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الأستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الأقليم الأول ثم يمر فيه مغرباً إلى أن

---

(٦٠) يقصد بكلمة (الزقاق) أي مضيق جبل طارق .
(٦١) بحر البنادقة : أي البحر الأدرياتيك .

ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي ، وعليه ومن جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر (٦٢) وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب . ثم بلد مقديشو ثم بلد سفالة وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء ، وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف ، وزبيد وغيرها ، ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة ، قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقاً ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال و مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الأقليم الثاني على ألف واربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وأيله ، ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل ، ومازال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك ، والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال مغرباً قليلاً إلى أن ينتهي إلى الأبلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الأقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والأبلة ، وعند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف عند مبدئه ، وفيما بين بحر فارس

---

(٦٢) والمقصود ببلاد البربر هنا ، أي الصومال .

والقلزم وجزيرة العرب كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق ، وتفضى إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما .

وهنالك الكوفة والقادسية وايوان كسرى وبغداد والحيرة ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم . وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة المغرب منها ، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منه ، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها ، وسواحله على البحر الحبشي (٦٣) .

ولم يكن كل من سبقه في الإشارة إليهم ، هم فقط الذين تعرضوا لذكر البحر في مؤلفاتهم الجغرافية أو كتب الرحلات ، وإنما هناك جغرافيون ورحالة آخرون ، ذكروا البحر مع التفاوت في كل ما دونوا ، ففي أوائل العصر الإسلامي أشارت كتب التراث الإسلامي إلى العديد من الرحالة الذين لم تصلنا مؤلفاتهم ، أو وصل أجزاء من بعضها وقد سلكوا طرق البر والبحر ودونوا بعض المعلومات والمشاهدات عما شاهدوا في البحار والأنهار التي مروا عليها . ومن أمثلة أولئك الرحالة ابن وهب القرشي ، وسلميان التاجر ، وابن فضلان ، وأبو دلف الخزرجي وغيرهم كثير .

هذا ، وهناك مؤلفات أخرى وصلنا البعض منها جمع أصحابها بين التاريخ والجغرافيا ، ولم تتعرض لذكر البحار بنوع من التفصيل وإنما أشارت إلى بعض البحار فذكرت الطرق التجارية التي تمر بها ، وأحياناً ذكرت بعض الموانىء الهامة على سواحل بعض البحار ، ومن أمثلة تلك المؤلفات (كتاب صفة جزيرة العرب) للهمذاني و (تاريخ المستبصر) ، لابن المجاور ، و (كتاب اسماء جبال تهامة و سكانها وما فيها من القرى

---

(٦٣) عبد الرحمن ابن خلدون . المقدمة (بيروت : دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، ١٩٨٢م) ، ص ٧٦ - ٨٠ .

وما بنيت عليها من الأشجار وما فيها من المياه) لعرام بن الأصبغ السلمي . وجميع هذه المؤلفات تدور حول تاريخ شبه الجزيرة العربية ، لكنها تعرضت لذكر الطرق التجارية البحرية في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، كما نوهت إلى نشاط بعض الموانيء التجارية الواقعة على سواحل تلك البحار .

وهناك بعض المعاجم الجغرافية ، أمثال (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، و (معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع) لعبد الله بن عبد العزيز البكري ، و كتاب (عجائب المخلوقات) و (اثار البلاد وأخبار العباد) لجمال الدين أبو يحيى زكريا المقلب بالقزويني ، وكتاب (الروض المعطار في أخبار الاقطار) لمحمد بن عبد المنعم الحميري وغيرها ، أشارت إلى أسماء أماكن عديدة ، وذكرت معلومات عن الجوانب الطبيعية والإقتصادية والبشرية ، ومن تلك الأسماء والمعلومات ما يكون له علاقة ببعض الجزر البحرية ، أو الخلجان ، أو الأنهار ، أو الموانيء أو المواقع البحرية المختلفة .

ومنذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ظهر جغرافيون ورحالة غير الذين سبقت الإشارة إليهم بعضهم قدم من النواحي الشرقية للعالم الإسلامي حتى صار يطلق عليهم في المراجع اسم (الرحالة المشارقة) أمثال ناصر خسرو الفارسي والهروي واسامة بن منقذ ، وعبد الكريم السمعاني وعمارة اليمني وغيرهم ، والبعض الآخر قدموا من النواحي الغربية للعالم الإسلامي ، كبلاد المغرب والأندلس وما حولها ، فعرفوا باسم (الرحالة المغاربة) كابن جبير ، والعبدري ، والسبتي التجيبي ، وابن بطوطة ، وغيرهم كثير . ومعظم هؤلاء وصلتنا مؤلفاتهم التي سجلوها أثناء تنقلهم وترحالهم ، فكان لذكر البحر نصيب كبير عند بعضهم ، أمثال ناصر خسرو ، وابن جبير وابن بطوطة ، حيث دونوا ما

شاهدوه في البحار التي ركبوها ، وبينوا حركة المد والجزر في بعض البحار ، كالبحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي والبحر الأحمر ، ما نوهوا إلى نوعية السفن التي كانت تستخدم في بعض البحار مع ذكر المواد التي كانت تصنع منها ، وأشار البعض منهم إلى الحركة التجارية التي كانت في بعض الموانىء على تلك البحار ، إلى غير ذلك من المعلومات الهامة في البحر وعلومه (٦٤) .

ثالثاً: البحر في كتب التاريخ :

ابرزت كتب التاريخ ، وخاصة الإسلامية المبكرة منها ، عناية فائقة بالبحر ، لا تقل عن العناية والرعاية التي أولاها الجغرافيون والرحالة بالبحر التي سبقت الإشارة إليها فيما دونوه وما شاهدوه في كتبهم وأسفارهم . وربما أمتازت كتب التاريخ عن غيرها بتنوع مناهجها ، وتعدد أساليبها وهي تعالج موضوع اهتمامها بالبحر في نواح مختلفة جيدة ومتميزة عن غيرها ، فيشمل موضوع إهتمامها جوانب أخرى لم نلحظها من قبل ، كالإهتمام بالجوانب السياسية والعسكرية والإستراتيجية وهي الجوانب التي يحظى بها علم التاريخ دائما ، ويمتاز بها عن غيره من العلوم .

فإذا فحصنا المصادر التاريخية الحولية ، كتاريخ الأمم والملوك للطبري ، والكامل في التاريخ لأبن الأثير ، والبداية والنهاية في التاريخ لابن كثير وغيرها ، فإننا نلحظ ذلك الإهتمام المشار إليه علاوة على ما

---

(٦٤) وللمزيد من التفصيلات ، انظر في المصادر التالية : الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ، أبو معين الدين ناصر خسرو . سفرنامة ، رحلة ناصر خسرو القبادياني ، ترجمه من الفارسية وحققه أحمد خالد البدلي (الرياض : عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، د. ت

تحتويه هذه المصادر من معلومات أخرى متنوعة [٦٥] .

ومن الكتب الأولى التي اتبع أصحابها منهج الموضوعية ، وسلكوا فيها أساليب مختلفة ، وناقشوا فيها عناصر عديدة على هيئة موضوعات أو أسر في التاريخ ، نذكر على سبيل المثال :

مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي ، وكتاب التاريخ لليعقوبي ، أو أنساب الأشراف وفتوح البلدان للبلاذري ، وهذه الكتب الأخيرة اختلفت اختلافاً يسيراً عن كتب الحوليات في طريقة التدوين ، لكنها لا تختلف كثيراً عنها فيما أوردت من موضوعات ، وخاصة فيما يتعلق بالبحار ، حيث أشارت إلى بداية العرب المسلمين في ركوب البحر وخاصة في المجال العسكري [٦٦] ، وناقش العديد من هذه المصادر الصدام العسكري بين المسلمين والدولة البيزنطية وكذلك الفرنجة ابان الحروب الصليبية ، وخاصة في المعارك الحربية ، كما تعرضت مثل هذه الكتب لإهتمام المسلمين ببناء الأساطيل البحرية وصناعة السفن المتنوعة الأحجام والأهداف [٦٧] .

---

(٦٥) وللمزيد من التوضيحات ، انظر ، تاريخ الأمم والملوك ، للطبري ، والكامل في التاريخ، لأبن الأثير ، والبداية والنهاية ، لأبن كثير ، أيضاً انظر ، العماد مصطفى طلاس ، الحرب عند العرب (بيروت : دار الكلمة للنشر ، ١٩٨١م) ص ٢٦ وما بعدها ، حسين مؤنس . تاريخ المسلمين في البحر المتوسط (الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية) (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١م) ص ٣٠ وما بعدها .

(٦٦) احمد بن يحي البلاذري . فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ١٦٨ وما بعدها ، أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) جـ ٢ ص ١٣٩ وما بعدها ، أحمد بن أعثم . كتاب الفتوح (بيروت : دار الندوة الجديدة ، د.ت) جـ ٣ ، ٤ ، المسعودي ، مروج الذهب ، مج ٢ ، جـ ٣ ، ٤ .

(٦٧) انظر ، حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٣١ وما بعدها ، محمد ضيف الله بطاينة «الأسطول الإسلامي ، نشأته وتطوره » ص ١٨-٣٣ .

ومن كتب التاريخ ما عرف عند اصحاب التراث (بكتب التراجم) مثل: طبقات ابن سعد ، وطبقات ابن خياط ، وصفة الصفوة لإبن الجوزي، وكتاب الوفيات لابن خلكان ، وسير أعلام النبلاء للذهبي وغيرها كثير ، فمثل هذا النوع من المصادر أهتم بذكر سير الرجال ، لكنها لا تخلو من معلومات جيدة عن بعض القادة الرجال الذين شاركوا في الحروب البحرية عند المسلمين ، كما أشارت إلى بعض الأسماء التي عملت في بعض السواحل البحرية ، أو إلى تلك التي كان لها شأن وصلة بغزوات البحر ضد أعداء الإسلام [(٦٨)] .

ومع تقديرنا لهؤلاء جميعاً ، إلا أننا ندين بالكثير لذلك الرعيل الأول من المؤرخين والرحالة العرب من أمثال المسعودي وابن بطوطة وياقوت وأبو الفداء وغيرهم .

وأشهر هؤلاء الرواد العرب والمسلمين الذين تحدثوا عن بعض بحار العالم من النواحي العلمية والنظرية ، وغطت كتاباتهم بعض الجوانب الهامة في المجالات الإقتصادية والإجتماعية ، ولذلك نعتبرها مفيدة ومراجع أصيلة ومنهم :

١- المسعودي :

مؤرخ وجغرافي كما مر معنا ، توفى في ٣٤٦هـ (٩٥٧م) في الفسطاط بمصر وهو من مواليد بغداد وله ولع بالرحلات ، زار الهند وسيلان وبحر الصين وزنجبار ومدغشقر والصومال ، وقد وصف رحلاته وتجاربه ومشاهداته في ثلاثين جزءاً وسمى كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر)

---

(٦٨) امثال عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وغيرهم كثير ، حيث كانوا من أوائل من ركب البحر من المسلمين ، وخاصة في حروبهم مع الروم في البحر الأبيض المتوسط .

... وهو كتاب سياحة ومعرفة وتاريخ وجغرافيا وعمران وعلم وأساطير ، والمعروف أن البحار الجنوبية صارت مألوفة ومعروفة عند العرب ، وقد وصفها المسعودي أدق وصف ، كما وصف نشاط العرب البحري والتجاري.

وكان المسعودي يذرع البحر إلى شرق أفريقية من عمان ، وكانت آخر رحلة له عام ٣٠٤هـ (٩١٧م) من قنبلو إلى عمان ، ووصف الملاحة العربية فقال : « وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين وهم أرباب المراكب أنهم يشاهدون في البحر [٦٩] ... » .

ويستطرد المسعودي في وصف المحيط الهندي والبحار الجنوبية للجزيرة العربية ويقول : « قدروا بحر الهند وهو الحبش إلى أقصى الهند والصين ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألف وسبعمائة ميل ، وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل ، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع ، ويكثر كذلك ، وليس في المعمورة أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة ، يمتد إلى ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربري ، طوله خمسمائة ميل وعرض طرفيه مائة ميل وليست هذه بربر التي ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض أفريقية ، لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الأسم « ... وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري وهم يعرفونه ببحر بربري ، وبلاد جفوني أكثر مسافة مما ذكرنا ، وموجه عظيم كالجبال الشواهق ، فإنه موج أعمى ، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية ، لا

(٦٩) المسعودي ، مروج الذهب ، مج ١ جـ ١ ، ص ١٢٣ .

ينكسر موجه ، ولا يظهر من ذلك زبد ، كتكسر أمواج سائر البحار ، ويزعمون أنه موج مجنون . وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد ، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا ما ذكرنا من الأمواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون (٧٠) .

ويضيف المسعودي عن الملاحة العربية قوله : « ... وسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة وهي أقصى بلاد الزنج (في روديسيا حالياً) وإليها تقصد مراكب العمانين وهي غاية مقصدهم في (أسافل) بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصي بلاد الواق واق ، وهي أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، خصبة حارة ، اتخذها الزنج دار مملكة ، وملكوا عليها ملكاً سموه وقليمي (٧١) يملك ملوك سائر الزنوج (٧٢).

٢ - ابن بطوطة :

يعتبر ما كتبه هذا الرحالة العربي المشهور الذي ولد في طنجة (٧٠٢هـ) (١٣٠٤م) من أهم مصادر المعرفة عن أحوال بحر الزنج وبلدان شرق أفريقية في العصر الوسيط. لقد قام ابن بطوطة برحلة بحرية من طنجة لتأدية فريضة الحج وزار مقديشو وقابل سلطانها ، كما زار كلوة (عاصمة إمبراطورية الزنج ٩٧٥هـ - ١٤٩٧م) وقد دونت معلوماته في كتابه المشهور باسم (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد وصف ابن بطوطة بحر الزنج وسواحله والمدن الهامة التي تطل عليه بقوله:

---

(٧٠) المصدر نفسه ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، وكانوا يرتجزون قائلين :

بربري وجنوني   و موجك المجنون

جنوني وبربري   وموجها كما ترى

(٧١) وقليمي أو واكليمي (Waglimi) أو افليمي (Waflimi)والتي ربما تعني الكلمة السواحلية وافليم (Wafalame) مفردها مفلم (Maflme) ومعناها زعيم . انظر :
S. Trimingham , Islam in East Africa (London , 1964) PP. 4-5 .

(٧٢) المسعودي ، مروج الذهب ، مج . ، جـ ١ ، ص ١٢٢ وما بعدها .

(ركبنا البحر إلى مدينة كلوه وهي مدينة ساحلية عظيمة أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم . ومدينة كلوة أحسن المدن ، واتقنها عمارة وكلها بالخشب ، وسقف بيوتها الديس ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل بالكفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب (٧٣) .

ويضاف بالطبع لذلك الرعيل الأول والذين سبقت الإشارة إليهم في موضوع « البحر في كتب الجغرافيا »:

(أ) ابن الوردي:

في كتابه (فريدة العجائب وفريدة الغرايب) ، تعرض ابن الوردي إلى البحار العربية الجنوبية وتجارتها الزاهرة ، وجاء بمعلومات هامة عن السواحل العربية الأفريقية وحضارتها الشامخة في خلال العصور الوسطى ، وتحدث عن أثر البحر ودور العرب في الملاحة والتجارة العربية المزدهرة بين سواحل أفريقية الشرقية من جهة وبلاد الهند والصين من جهة أخرى .

(ب) ياقوت الحموي:

هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، من أشهر الجغرافيين والمؤرخين ، وله قاموس جغرافي سماه (معجم البلدان) وقد سبقت الإشارة إليه ، وهو يتحدث عن البحار العربية وبحر الروم والهند والصين . وهذا المعجم غني بالمعرفة ، وأشار ياقوت إلى النشاط العربي في البحار وتقدم فنون الملاحة وبراعة العرب في هذا المجال . وقد جاء في وصفه لبحر الزنج قوله :

---

(٧٣) انظر، ابو عبد الله اللواتي الطنجي بن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، (القاهرة ، ١٣٢٢هـ) ص ١٩٣ .

« وهو بحر الهند بعينه وبلاد الزنج منه نحو الجنوب » (٧٤) .

ويمكن القول أن جميع الكتب التاريخية التي سبقت الإشارة إليها وغيرها تعتبر من أهم المراجع في جغرافية وتاريخ سواحل البحار المختلفة، فقد جاءت بمعلومات هامة عن بعض بحار العالم الهامة ومدنها وسواحلها وأحوالها الإجتماعية والإقتصادية ، كما أشارت إلى نشاط الحركة التجارية وازدهارها فيها ، وهذا يدل دلالة واضحة أن البحار والأنهار لها دور كبير وعظيم في ازدهار الحياة والنشاط بكافة نواحيه سواء أكان في مجال الزراعة أو الصناعة أو نشأة المدن ، نموها وتطورها وازدهارها . والمعروف أن بناء المدن وتأسيسها يراعي فيه قربها من البحار أو الأنهار . فعلى سبيل المثال يذكر أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور عندما أراد تأسيس مدينة تكون عاصمة لدولة الخلافة كان حريصاً أن تكون هذه المدينة على ضفاف نهر دجلة لأسباب إستراتيجية وسياسية وإقتصادية وتجارية بحيث لا تبعد كثيراً عن الخليج الفارسي الذي اشتهر بموقعه الإستراتيجي والتجاري الهام إذ أن كل سفن أوروبا والشرق الأقصى ترسو في هذا الخليج (٧٥) .

---

(٧٤) شهاب الدين ياقوت الحموي ، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) جـ ١ ، ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٧٥) وللمزيد من التفصيل عن مدينة بغداد ، ومكانتها التجارية والسياسية ، انظر ، كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م) ص ٤٠ وما بعدها ، السيدر محمد يوسف ، « علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري » مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ١ ، جـ ١ (١٩٥٣م) ص ٢٥-٢٦ .

M. Lombard. The Golden Age of Islam , tr. J. Spencer (Amsterdam , (1975) p. 16-17. Ghithan Jrais . The Social , Industrial and Commercial History of the Hejaz Under the Early Abbassids (132-232/749 - 847) Unpublished Thesis , University of Manchester (1989) PP. 220 ff .

ولابد من الإشارة أيضاً إلى كتب التاريخ التي حفلت بنشاط العرب البحري قبل الإسلام بقرون عديدة ، فإنها رصدت كذلك تفوق المسلمين وبراعتهم في فنون الملاحة وركوب البحر بعد انتشار الإسلام وذلك لأسباب دينية وسياسية واستراتيجية فضلاً عن العامل الإقتصادي واهتمام العرب بتطور التجارة وازدهارها ، الأمر الذي جعل المسلمين يحتكرون السيادة البحرية في معظم بحار العالم لدرجة أن البحر المتوسط الذي كان فيما مضى يعرف بالبحيرة الرومانية ، أو بحر الروم ، أصبح يطلق عليه البحيرة الإسلامية (٧٦) . وهذا يعني أن العرب والمسلمين تفوقوا تفوقاً واضحاً على غيرهم من أصحاب الحضارات القديمة من اليونان والرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم . يضاف إلى ذلك إلى أن العرب ما عادوا يهابون ركوب البحر ، بل أن حروب الجهاد في سبيل الله ، وكسر شوكة أعداء الإسلام والمسلمين الذين كانوا يتربصون بها ، الدوائر دفعتهم إلى بذل المزيد من الجهد لتطوير فنون الملاحة وتطوير وصناعة السفن ، فأصبحوا بذلك اساتذة مهرة في علوم البحار وفنونها المختلفة .

فلما ظهر الإسلام ، وبدأت حركة الفتوح الإسلامية على أثر ذلك لإعلاء كلمة الحق والجهاد في سبيل الله ، نجح المسلمون في التغلب على أعتى الجيوش براً ، واحتلوا بلاد الفرس والعراق والشام ومصر ، فأصبحت لهم سواحل طويلة ، إلا أن هذه السواحل كانت تقف دائماً عقبة أمام تقدم جيوشهم ، وكانت هذه السواحل هي المكان الملائم لهجوم أعدائهم عليهم

---

(٧٦) انظر لمزيد من التفصيلات ، حسين مؤنس « اثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية في البحر المتوسط » مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مج ١ ، ج ١ (١٩٥١م) ص ٨٨-٨٩ ، علي محمد فهمي . « البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط من القرن السابع إلى العاشر الميلادي » تاريخ البحرية المصرية (الأسكندرية : جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٣م) ص ٢٦١ وما بعدها .

فالعرب الذين قهروا وانتصروا على أكبر الجيوش في العالم رأوا إن عدوهم أصبح يتحداهم من ناحية البحر ، ومثلما سبق القول أن عرب الجزيرة عند ظهور الإسلام كانوا بدواً ولا خبرة لهم بالبحر وركوبه ، لذلك عملوا على إصلاح الحصون الساحلية القديمة التي تركها العدو ، وأطلقوا عليها « أخائذ » ، كما أنشأوا « مناظر » أي اماكن يراقب منها العدو كانت تتخذ « المواقيد » لطلب الإمداد إذا حدث هجوم مفاجىء . فكانت العقبة الأساسية حينئذ هي أن العدو كان يتحدي العرب المسلمين من ناحية البحر، وهم مازالوا يهابون ركوبه وتنقصهم السفن اللازمة لمواجهة الأعداء في ذلك المجال . وكان الخليفة عمر بن الخطاب يخاف على المسلمين من ركوب البحر ، ويحذرهم من ركوبه خوفاً على حياتهم وأرواحهم .

وأشارت بعض المصادر في هذا الجانب أن أول من ركب البحر في حملة عسكرية من المسلمين هو العلاء بن الحضرمي والي البحرين لغزو بلاد الفرس في أثنى عشر ألفاً من المسلمين من غير أذن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، فلحقت الهزيمة بجيشه ، ولما علم الخليفة بأمر هذه الحادثة عزل هذا الوالي من منصبه .

كانت السيادة الحربية البيزنطية ، وتهديدها المستمر للسواحل الإسلامية في الشام ومصر ، وإغاراتهم المتكررة عليها ، جعل ولاة الشام ومصر يفكرون في بناء قوة بحرية ، وانشاء أسطول قوي يتحدون به سيادة الروم في البحر ، فكتب معاوية بن أبي سفيان يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب السماح لهم ببناء هذه القوة حتى يضعوا حداً لهجمات الروم المتكررة وغاراتهم المستمرة على السواحل الإسلامية ، إلا أن الخليفة

عمر بن الخطاب امتنع عن ذلك (٧٧) . لعدة أسباب منها :

١ - خوفه المستمر على حياة المسلمين وذلك في قوله : « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبدا » .

٢ - كان الخليفة عمر بن الخطاب يعتقد أن المسلمين تنقصهم الخبرة الكافية التي تمكنهم من منازلة الروم في البحر في هذه المرحلة المبكرة .

٣ - أن الخليفة عمر بن الخطاب يخشى أن يحدث للمسلمين ما حدث لحملة العلاء بن الحضرمي في بلاد الفرس ، لذلك كان يرى أن الإمتداد البري في هذه المرحلة مع الرباط هو خير بديل لركوب البحر.

على ذلك امتنع ولاة الشام ومصر ، فانتهجوا سياسة جديدة هي المرابطة على شواطىء البحر ، وذلك لمراقبة المواقع الساحلية ورصد تحركات الروم (٧٨) .

سار الخليفة عثمان بن عفان في بداية خلافته على نهج الخليفة عمر بن الخطاب في تقوية المواقف الدفاعية على السواحل ، ولكن عندما اشتدت

---

(٧٧) الخليفة عمر بن الخطاب ، لم يتسرع في الإجابة على معاوية بن أبي سفيان وإنما ارسل إلى عمرو بن العاص ويطلب منه وصفا للبحر ، فأرسل له عمرو وصفاً قائلا : يا امير المؤمنين أني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، ان ركد خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق » وعندما قرأ عمر بن الخطاب ما كتب له عمرو بن العاص ، وتذكر ما حدث للعلاء بن المغيث الحضرمي ، ارسل عدم الموافقة لمعاوية بن أبي سفيان ، انظر ، محمد ضيف الله بطانية ، ص ١٨ - ١٩ ، أنور عبد العليم ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، حسن وعلى ابراهيم حسن ، النظم الإسلامية (القاهرة : مكتبة النهضة ، ١٩٧٠م) ص ٢١٦-٢١٧، أحمد أمين مصطفى. الرسائل في مصر الإسلامية (القاهرة : مطبعة السعادة . ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ص ٧٧ .

(٧٨) انظر ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ - ١٧٦ ، سالم والعبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ١٦ وما بعدها .

هجمات الروم والبيزنطيين علي المسلمين ، عهد الخليفة عثمان إلى معاوية ببناء أسطول يردع الروم ويضع حداً لهجماتهم على سواحل المسلمين ، فنجح المسلمون في بناء بحريةٍ قويةِ تحدت السيطرة البيزنطية وكسرت احتكار سيادتها للبحر بعد الإنتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون في موقعة ذات الصواري عام ٣٤هـ (٦٥٤م) (٧٩) .

لقد استفاد المسلمون استفادة تامة من خيرات أهالي البلاد المفتوحة خاصة بعد انتشار الإسلام بينهم ، ومعظمهم من القبط المصريين ونصارى الشام ، فأصبحت بذلك صناعة السفن إسلامية ، وقامت دور الصناعة البحرية ، فأنشأوا السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وتطورت هذه الصناعة بحيث أن العبارة التي تعني المكان الذي تصنع فيه السفن ، وهي الصناعة ، انتقلت إلى لغات العرب باسم « ارسنال » «Arsenal » ولازالت إلى وقتنا الحاضر ، تدل على المكان الذي تصنع فيه السفن . وقد أوجد الإهتمام بالاسطول ظهور « دواوين خاصة به للإشراف عليه - يذكر منها في العصر الفاطمي « ديوان الجهاد » وفي العصر الأيوبي « ديوان الأسطول » فكان هذا الديوان يقوم بالصرف على رجال الأسطول ، وهو ما عرف بالنفقة .

ويعتبر معاوية بن أبي سفيان ، أول من عن بإنشاء السفن الحربية ، ورتب لغزو الدولة البيزنطية والإستيلاء على عاصمتها القسطنطينية وهو الحلم الذي كان يراود أي حاكم مسلم على مر الأزمان ، وكانت الخطط التي وضعها معاوية لغزو بلاد الروم قد عرفت باسم « الشواتي » و «الصوائف » ومعنى ذلك أن معاوية وضع نظاماً يكفل استمرار الحرب

---

(٧٩) حسين مؤنس ، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ، ص ٣١ وما بعدها ، سالم والعبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦ وما بعدها .

بين المسلمين والروم شتاءً وصيفاً . وسار خلفاؤه من بعده على ذلك النهج من حيث الإهتمام ببناء الأساطيل وتجهيزها ، حتى قهروا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وجزره المختلفة ، كما هددوا العاصمة القسطنطينية عدة مرات [٨٠] .

كان اهتمام الخلفاء العباسيين بالبحرية الإسلامية كبيراً ، فكلفوا ولاتهم بتطوير الأسطول وبناء السفن ، كما بذل الطولونيون في مصر والشام جهوداً لتقوية القواعد والحصون الساحلية واعتنوا بدور الصناعة ، وخاصة دار جزيرة مصر التي تعرف « بالروضة » والتي ظلت دار صناعة للسفن إلى أيام محمد بن طغج الأخشيدي الذي أمر بنقلها إلى ساحل مصر عام ٣٢٥هـ (٩٣٦م) [٨١] .

وتزايد اهتمام الفاطميين بالنشاط البحري وتطوير الأسطول في البحر الأبيض المتوسط ، حيث أمر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ابنه العزيز بالله بتأسيس دار للصناعة البحرية في (المقس) ، فتم انشاء ستمائة مركب لم يرفي البحر مثلها كبراً ووثاقة ، كما أنشئت المراكب البحرية بمدينة القاهرة والإسكندرية ودمياط ، وصارت تنقل إلى مدن الشام الساحلية ، مثل صور وعكا وعسقلان [٨٢] .

وقامت الإمارة الأموية في الأندلس على أثر غزو النورمان للسواحل الأندلسية عام (٢٢٩هـ / ٨٤٣م) في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط

---

(٨٠) للمزيد من التفصيلات عن تفوق المسلمين على الروم ، انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٨ وما بعدها ، سالم والعبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦١ وما بعدها ، حسين مؤنس «اثر ظهور الإسلام في أوضاع البحر المتوسط ، ص ٨٨-٩٠ ، علي محمد فهمي « البحرية الإسلامية ... » ، ص ٢٦١ وما بعدها .

(٨١) محمد ضيف الله بطانية ، المرجع السابق ، ص ٢٣..

(٨٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣ وما بعدها .

بإنشاء دار للصناعة البحرية في أشبيليه عام (٢٣٠هـ / ٨٤٤م) ، وبناء دار لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن في قرمونة ، واستعانوا بالطوائف البحرية التي كانت تشتغل بالغزو البحري فيما مضى لحسابها الخاص ، في إدارة الأسطول الأندلسي وتسييره [٨٣] وتابع محمد بن عبد الرحمن الأوسط جهود أبيه في مجال الإهتمام بالأسطول ، وبلغ مجموع ما أنشأه عام (٢٤٥هـ / ٨٥٩م) من المراكب البحرية سبعمائة من النوع الذي يطلق على القطعة البحرية منها (غراب) ، وكانت عناية عبد الرحمن الناصر بالبحرية كبيرة جداً حتى عد المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي فأنشأ دوراً كثيرة للصناعة البحرية التي كانت تنتشر في مواقع مختلفة من السواحل الأندلسية ، ومنها ما كان مختصاً بصناعة السفن الصغيرة ، وأخرى بصناعة السفن الكبيرة والأسلحة الحربية ، وتركزت الأساطيل الأندلسية الهامة في قاعدتين هما : أشبيليه التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على المحيط الأطلسي ، ومرية بجانة التي اتخذت لحماية السواحل الأندلسية المطلة على البحر المتوسط [٨٤] .

كذلك كان الإهتمام كبيراً ببناء دور للصناعة في بعض جزر البحر المتوسط مثل صقلية وكريت وغيرها ، وبالتالي صارت الأساطيل الإسلامية تنطلق من القواعد البحرية فيها صوب إيطاليا وفرنسا وسواحل البحر التيراني وغيرها . وقد أدى الإهتمام بدور الصناعة البحرية والعناية بالأساطيل إلى علو يد المسلمين على غيرهم من اسم البحر المتوسط

---

(٨٣) انظر ، سالم والعبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ١٦١-١٦٢ .

(٨٤) نقولا زيادة . الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت : الاهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م) ص ١١٢ - ١١٣ ، صلاح الدين الشامي ، الفكر الجغرافي ، سيرة ومسيرة (الاسكندرية : المعارف ، د. ت) ص ٢٢١ وما بعدها ، سالم والعبادي ، المرجع السابق . ص ١٨٣ .

وسيطرتهم على مسالكه ، وفي ذلك يقول ابن خلدون « .. وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الأجزاء المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانيا وصقلية ومالطة واقريطش وقبرص [٨٥] .

وفي عهد المرابطين والموحدين تفوقت قوتهم البحرية ، وكانت لهم سفن على نوعين : احدهما يستعمل لنقل الجند والمؤن إلى السواحل الأندلسية والأخرى تتألف من السفن الحربية المقاتلة . ومن الطريف في عهد الموحدين انهم كانوا يدرجون ضمن مناهجهم التعليمية التدريب على استعمال الأسلحة البرية والبحرية ، وأساليب الحصار براً وبحراً ، كما يذكر أنهم أنشأوا بركاً بالقرب من مدينة مراكش ، ووضعوا فيها القوارب والسفن الحربية الصغيرة المسماة (سفن التدريب) ليتدرب عليها الطلاب القيادة والتجديف وكل ما يتصل بالفنون البحرية الحربية [٨٦] .

ولم تقتصر كتب التراث بسرد التطور التاريخي للجيوش البحرية عند المسلمين ، أو مراحل بناء الأساطيل فيها ، لكنها تعرضت أيضاً لأنواع الأخشاب والمسامير والألياف والأشرعة التي استخدمها الصناع في صناعة السفن ، كما أشارت المراجع إلى الأماكن التي كان يجلب منها الأخشاب المفضلة في بناء السفن بأنواعها ، وتعرضت أيضاً لعملية بناء السفن مع

---

(٨٥) ابن خلدون ، المقدمة . ص ١٨٩، ٢٢٠ . محمد ضيف الله بطانية ، المرجع السابق ، ص ١٩ وما بعدها .

(٨٦) محمد بن إبراهيم الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور (تونس : المكتبة العتيقة ، ١٩٦٦م) ص ٤ وما بعدها وحسن علي إبراهيم ، النظم الإسلامية ، ص ٢٢٤-٢٢٥ .

الإشارة إلى أنواعها وأحجامها ، وكذلك اسمائها المتعددة (٨٧) .

أيضاً لم تغفل المصادر الإسلامية التكتيك الحربي في البحر واساليبه ، بل أشارت إلى أسلحة الأسطول التي يشبه بعضها اسلحة الجيوش البرية مثل القوس والمنجنيقات والكلاليب وهي التي تلقى على مراكب العدو وتجذب ويرمى عليها الألواح التي يمر الجند عليها إلى سفن الأعداء لقتال من فيها . وتحمل مراكب الأسطول أيضاً أدوات الحصار مثل الأبراج والدبابات والمدافع والسلالم ، واستعمل الأسطول الإسلامي النار الإغريقية منذ القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) (٨٨) .

ومن المؤكد أن العرب ساعدوا على تقدم الملاحة في البحار ، فيشير المقدسي اثناء حديثه عن المحيط الهندي إلى سعة مدارك الملاحين العرب به ، بل ويذكر أنهم أبصر الناس بطرق ذلك البحر ومراسيه وحدوده وجزائره(٨٩) . ويشير المسعودي أيضاً إلى العلوم البحرية التي يتوارثها الملاحون ويسترشدون بأحكامها (٩٠) ، وألف بعضهم الكتب المفيدة في

---

(٨٧) لمزيد من التوضيحات . انظر . سالم والعبادي ، تاريخ البحرية . ص ٦٠ ، ٧٥ ، درويش النخيلي ، ص ٧ وما بعدها ، آدم متز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٠هـ/١٩٤١م) جـ ٢ ، ص ٣٣١ وما بعدها ، سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، ص ١٦٩-١٧٠ .

(٨٨) والنار الأغريقية : عبارة عن مزيج من كبريت أو بعض الأدهان في شكل سائل يطلق من اسطوانة نحاسية مستطيلة تشد في مقدمة السفينة ويقذف منها السائل مشتعلاً ، أو يطلق بشكل كرات مشتعلة ، أو قطع من الكتان الملوث . وهذه النار كانت تستعمل في الماء والهواء، وهي في الأصل من اختراع السوريين ، تعلمها البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه كالينكوس في القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) اثناء محاولات العرب المسلمين فتح القسطنطينية، ثم استخدمها المسلمون وأساطيلهم ، انظر سعاد ماهر ، البحرية في مصر ، ص ٢١٣، ٢٣٢، ٢٣٥، ٣٣٨، ٣٧٣، حسن وعلي ابراهيم ، النظم الإسلامية ، ص ٢١٦ وما بعدها ، أنور الرفاعي ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٨٩) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٠-١١ .

(٩٠) المسعودي ، مروج الذهب ، مج ١ ، جـ ١ ، ص ١٦٧ وما بعدها .

فن الملاحة مثل أحمد بن ماجد في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وهور الذي وصف بالمعلم ، وكتابه بعنوان « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » .

كما اشارت كثير من المصادر التاريخية والجغرافية والرحلات إلى الطرق التجارية البحرية في البحار العظمى الممتدة إلى الهند والصين وإلى اطراف أوروبا وروسيا وغيرها ، مع ذكر الإيجابيات والسلبيات لتلك الطرق، والموانىء التي تقع عليها ، ومستوى كل ميناء في عملية النشاط التجاري ، وما يتميز به من سلع وبضائع وسفن ترد إليه من أجزاء متعددة في العالم ، ونوعية التجار الذين يرتادون تلك الطرق والموانىء التجارية، كما تعرضت بعض الروايات إلى التعاون والتبادل التجاري الذي كان بين المسلمين وغيرهم من خلال بعض الطرق والموانىء في المحيط الهندي أو المحيط الأطلسي أو بحر الخزر أو البحر المتوسط وغيرها من البحار الأخرى (٩١) .

رابعاً: ذكر البحر في الموسوعات :

يمكن تقسيم الموسوعات إلى نوعين ،ظهر النوع الأول منها في العصر

---

(٩١) لمزيد من التفصيلات ، انظر جورج حوراني . العرب والملاحة ، ص ٢٣ وما بعدها ، السيد محمد يوسف « علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري ص ٩ وما بعدها ، ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . مبشر الطرازي «العلاقات التجارية بين البلاد العربية وبلاد شبه القارة الهندية قبل الإسلام وبعده حتي العصر العباسي » مجلة الفيصل ، عدد (٦٩) (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ص ٤٠-٤٢ .

Eliyaha Ashtor . A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages (London , 1976) PP. 21 ff , S.M. Imamuddin . " Commercial Relation of Spain with Iraq , Persia , Khurasan , China, India in the tenth Century . A.D. " Islamic Culture, Vol. XXX VII (1963) P. 177, Magbul-S- Ahmad . " Commercial Relations of India with the Arab world 1000 B.C. Up to Modern Times : Islamic Culture Vol. XXX VIII (1964) PP. 141-155 .

الإسلامي الوسيط ، وأبرز ما فيه تلك الموسوعات التي ظهرت في عصر دولة المماليك ، التي ستأتى الإشارة إليها .

وأما النوع الثاني ، فهي موسوعات العصر الحديث التي بدأت في الظهور منذ القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) .

كانت موسوعات العصر الإسلامي الوسيط أشبه بدائرة معارف ، ذكر العلماء أن بداية ظهورها منذ العصر العباسي وأطلق عليه حركة « التأليف الموسوعي » ... ذلك أن تلك الفترة هي فترة امتزاج الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، كانت كل واحدة منها تمثل عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الإسلامية ، ونذكر من بين هذه الثقافات الثقافة الفارسية التي انتشرت في الدولة العباسية ، وذلك بسبب انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد واعتماد العباسيين على الوزراء من الفرس ، ثم الثقافة اليونانية التي انتشرت بسبب الترجمة ، وكان من أهم مدارسها حران والإسكندرية وجند يسابور . كذلك تعتبر الثقافة الهندية الينبوع الأول الذي ارتوت منه الحضارة الإسلامية وخاصة في الفلك والرياضيات . أما الثقافة العربية فقوامها القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والخطب ونحو ذلك . وهناك الثقافة الدينية بوجه عام ونعني بها اليهودية والنصرانية ، وتعتبر هذه من المؤشرات الثقافية وتحمل معنى من معاني أصول الحضارة الإسلامية . ومن الكتب التي صنفت كموسوعات في العصر العباسي ، وخاصة في القرنين الثالث والرابع للهجرة ، يمكن أن نشير إلى مؤلفات الجاحظ في كتبه « البيان والتبيين والحيوان وغيرها »، وكابن قتيبة في عيون الأخبار والمعارف ، وأدب الكاتب وغيرها ، وأبي الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ، وابن سعيد المغربي « المغرب في حلى المغرب » .

إلا أن الموسوعات التاريخية بالمعنى الصحيح ، لم تظهر إلا في العصر المملوكي ، وقد دعت عوامل كثيرة لظهورها من أهمها سقوط بغداد (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) في أيدي التتار ، ثم مجيء تيمور لنك قائد المغول في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، أدى ذلك كله إلى ظهور نهضة أدبية وحركة علمية زاهرة إبان ازدهار عصور دولة المماليك التي ظهر خلالها أدباء وعلماء أثروا الحياة العلمية والفكرية والأدبية بكتاباتهم إنقاذاً للثقافة الإسلامية التي هزتها أحداث المغول والصليبيين وغيرهم (٩٢) .

وكان الإنتاج الفكري والعلمي الذي ظهر في خلال فترة النهضة المملوكية قد تمثل في كتب كبيرة على شكل (موسوعات) أو دوائر معارف لم تدع صغيرة أو كبيرة من تلك المواد إلا احصتها ونقبت فيها وكان نصيب البحر فيها جزيلاً وافراً إذ غطت هذه الموسوعات جوانب كثيرة من البحر ومختلف أوجه النشاط فيه .

فمن أشهر تلك الموسوعات نذكر على سبيل المثال « نهاية الأرب في فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المعروف «بالنويري » من أهل القرن الرابع عشر ، ولد في سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م، وتوفى في سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م (٩٣) .

---

(٩٢) وللمزيد من التفصيلات ، انظر ، أحمد رمضان أحمد ، تطور علم التاريخ الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م) ص ٢١٩ - ٢٢٣، نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص ٨٩ - ١١٥ ، صلاح الدين السامي ، المرجع السابق ، ص ٢٥١-٢٥٣ .

(٩٣) لقد أورد النويري كلاماً مفصلاً عن البحار ومواضيعها ومساحاتها وامتداداتها واشهر جزرها ، واعتبر اعظم البحار المعمورة ثلاثة هي : البحر المحيط وبحر مانيطس المعروف أيضاً ببحر آزوف ، وبحر الخزر ، انظر شهاب الدين أحمد النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب . (القاهرة : منشورات دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩م) جـ ١ ص ٢١٩ - ٢٣٨ .

ومن مؤرخي الموسوعات التاريخية في ذلك العصر نذكر ابن فضل الله العمري ومؤلفه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) الذي يقع في أربعة عشر جزءاً ، وشمل معلومات جغرافية وفلكية هامة ، وفيها وصف دقيق للبحار وما يتعلق بها .

ولعل من أشهر تلك الموسوعات التاريخية خلال تلك الفترة بصفة خاصة هي موسوعة أبي العباس القلقشندي الذي اشتهر بها وهي « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » التي تقع في أربعة عشر مجلداً في فنون كثيرة من التاريخ والأدب ووصف البلدان والممالك ، ويحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب ، وهو يسميه مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له «بحر الروم » الذي يطلق عليه اسماً آخر هو « البحر الشامي » ويذكر القلقشندي كل المدن المطلة عليه ، ويعين أعراضها وأطوالها ، ويبين المسافات التي تتصل بينها ، ويتناول أيضاً شرح البحر المتوسط وما يخرج منه وما يتصل به من بحار أخرى غير بحر الروم مثل بحر الصين وبحر الهند وبحر فارس وبحر القلزم والخليج البربري ، وبحر برديل (بحر بريطانية) (٩٤) .

أما النوع الثاني من الموسوعات ، فهو ذلك النوع الذي ظهر في العصر الحديث ، وأطلق عليه « دائرة المعارف » أو الأنسايكلوبيديا (Encyclopedea) وقد بدأ ظهور هذه الموسوعات منذ القرن الرابع عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) ، وكلها هام واسهمت كثيراً ، وقدمت خدمات جليلة لطلاب العلم والمعرفة بتعريف وشرح أشياء كثيرة ، وابرزت معلومات هامة كثيرة كانت تحتاج للإيضاح ،

---

(٩٤) انظر ، ابو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى (القاهرة : المطبعة الأميرية ، منشوات دار الكتب الخديوية ، ١٩١٤ م) جـ ٣ ، ص ٢٣٣ - ٢٤٩ .

رغم أنها لجأت في كثير من الأحيان إلى الإقتباس من موسوعات العصر الإسلامي التي سبقت الإشارة إليها .

ومن موسوعات العصر الحديث نذكر على سبيل المثال أنواعاً هامة منها: دائرة المعارف الإسلامية (Encyc. of Islam) ، ودائرة المعارف البريطانية (Ency, Brittannica) ، ودائرة المعارف الأمريكية ، وهذا بالإضافة إلى موسوعة البحار والمحيطات ، فلقد احتوت كل هذه الموسوعات على معلومات وافية عن البحر قديماً وحديثاً ، إلا أن معظم هذه المعلومات مأخوذ من كتب التراث الإسلامي مع إضافة محدودة كما سبق القول . فالموسوعة الإسلامية مثلاً لم تخرج عما جاء في كتب التراث التاريخية والجغرافية والأدبية ، فجاءت بتعريف كلمة « بحر » ثم أشارت إلى ذكر البحار كما وصفها الجغرافيون الأوائل كالإشارة إلى البحر الأبيض المتوسط المعروف ببحر المغرب أو بحر الروم ، وبحيرة خوارزم...إلخ [٩٥] .

وخلاصة القول ، أنه يمكن أن نخلص إلى أن البحر في كتب التراث الإسلامي قد حظى بإهتمام بالغ وكبير ، فلم يرد ذكره فقط في القران الكريم وكتب السنة ، وإنما تعرض له أصحاب المؤلفات اللغوية وخاصة مؤلفو المعاجم العربية ، الذين أوردوا كلمة (بحر) ثم بينوا معناها مع التقصى لجذورها التاريخية ، ومرادفاتها اللغوية ، وكذلك أضفى أرباب الأدب والشعر على البحر (أو ما يستخدم فيه من سفن ، أو يدور في عالمه) أحاسيسهم وتصوراتهم ، فذكروه في مقالاتهم وأشعارهم في صور شعرية رائعة تحمل تشبيهات ومعاني قيمة تدل على أهميته في حياة الإنسان .

---

(٩٥) انظر الموسوعة الإسلامية المترجمة إلى العربية ، جـ ٣ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٩(بحر) .

أما كتب الجغرافية والرحلات فقد تناولت ذكر البحر بشكل ممتاز . فتعرضت لذكر البحار وتوزيعها على الكرة الأرضية ، وأشار بعضها إلى اهمية الرياح في هدوء البحر وهيجانه ، وإلى حدوث عملية المد والجزر وتسمياته بأسماء مختلفة ، كما نوه بعض الجغرافيين والرحالة الأوائل إلى بعض الإختلافات الطبيعية والمناخية بين البحار والمحيطات بعضها مع بعض ، مع العلم أن كتب الجغرافية والرحلات تعتبر أفضل كتب التراث الإسلامي من حيث مناقشتها لطبيعة البحار ، وتعرضها لذكر الجبهات الهوائية والأمواج والتيارات البحرية ، وموارد الثروة في البحار والمحيطات والأنهار ، وغير ذلك فيما يتعلق بجغرافية البحار وعلومها .

والمؤرخون المسلمون الأوائل لم يكونوا أقل شأناً من الجغرافيين والرحالة أو من أصحاب اللغة والأدب ، وإنما أشادوا بالبحر وأهميته الحضارية في المجالات العسكرية والإقتصادية ، وفي صناعة السفن والأدوات الحربية بما فيها النار الأغريقية ، وفي بناء الأساطيل الإسلامية مع توفير الأيدي العاملة والخبراء إلى جانب المواد الخام اللازمة لبناء وتطوير صناعة القطع البحرية المختلفة .

والموسوعات الإسلامية المبكرة ، أمثال كتب الجاحظ ، وابن قتيبة ، ثم موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري ، و (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري ، و (صبح الأعشى) للقلقشندي ، ثم الموسوعات الحديثة ، كالموسوعة الإسلامية ، والموسوعتان الأمريكية والبريطانية ، فجميعها قد احتوت على معلومات لا بأس بها عن البحار ، ولكن هذه المعلومات عبارة عن تلخيصات إقتباسات لما أورده الجغرافيون والرحالة الأوائل ، والذين تعرضنا لأغلبهم في الصفحات السابقة من هذا البحث .

والحق أن كل واحد من أولئك الرعيل الأول (سواء كان لغوياً أو أديباً أو شاعراً أو جغرافياً أو رحالة أو مؤرخاً أو صاحب موسوعة) يمثل بفكره وثقافته وبلاغته ونصاعة بيانه ووفرة عطائه وتصرفه في المعرفة بالبحر وما يحيط به ونفاسة تأليفه ، صفحة مشرقة من صفحات الفكر الإسلامي .
لذلك فنحن نعتبر أن كتب التراث التي تناولت موضوع البحر ، وما حفل به من نشاط ، واحدة مع ألمع ثمرات الفكر الإسلامي وأكثرها نضوجاً ، ومؤلفوها من أكثر العقليات الإسلامية خصوبة وعطاء وتفجراً بالنفيس من القول والسديد من الفكر والراجح من الرأي ، والوفير من الإنتاج ، والسخي من العطاء . كما أننا نجد أن كل واحد من هؤلاء الذين اثروا بإنتاجهم كان متفننا في جميع العلوم من اللغة والشعر والأدب والفلك والجغرافيا والرياضيات والتاريخ ، وكل واحد من أولئك الأدباء والعلماء يستحق الإشادة بفضله الكثير ، وعلمه الوفير ، وهمته العالية في ساحة المعرفة المتنوعة الأشكال ، وبحره الدافق في ميادين العلوم المتعددة الألوان ولذلك بنحن لا نستطيع أن نغفل دورهم لأنهم من صفوة العقول الإسلامية المفكرة والمستنيرة ، وتعتبر مؤلفاتهم إضافة أساسية للمعرفة والعلم والقيم الإنسانية بشكل عام ، وفي هذا البحث بشكل خاص .